

تفسير قوله تعالى: وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَصُرُّوهُ شَيْئًا

..... { يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ } أكثر الله جل وعلا في القرآن من ذكر أن الموجودين إذا لم يطيعوه، ويمثلوا أمره فهو غني عنهم، قادر على إزالتهم وإزالتهم بالكلية، والإتيان بمن يخلفهم بل من يكونون خيرا منهم، وقد قدمنا هذا مرارا، وسيأتي أيضا. فمن الآيات التي بين بها هذا قوله تعالى في سورة النساء: { إِنْ يَسْأَلْكُمْ أَهْلُ النَّاسِ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ قَدِيرًا } وقوله في الأنعام: { وَرَبُّهُ الْعَزِيزُ ذُو الرِّحْمَةِ إِنْ يَسْأَلْكُمْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ } وقوله تعالى: { إِنْ يَسْأَلْكُمْ يُدْهِبْكُمْ وَيَبْتَاطِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } . وقوله في سورة القتال: { وَاللَّهُ الْعَزِيزُ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ يَسْأَلْكُمْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ } . وقوله في سورة القصص: { وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْغَائِبُونَ } ؛ أي بدلا من هؤلاء المرتدين، وهذا معنى قوله: { وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ } ؛ أي يأتي بقوم يجعلهم بدلكم خيرا منكم إذا استنفرتم نفروا، ولا يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، كما دلت عليه هذه الآيات المذكورة؛ وهذا معنى قوله: { وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ } . وقد ذكرنا مرارا أن لفظة "القوم" اسم جمع لا واحد له من لفظه، يطلق في اللغة العربية الإطلاق الأول على الذكور خاصة دون النساء؛ لأنه وضع للذكور خاصة، وربما دخلت فيه النساء بحكم التبع إذا دل على ذلك قرينة. أما الدليل على أن "القوم" اسم جمع خاص بالرجال في أصل وضعه، فقوله تعالى: { لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ } ثم قال: { وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ } فعطفه النساء على القوم تدل على عدم دخولهن في اسم القوم. ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء فعطف النساء على القوم. وربما دخلت النساء في اسم "القوم" بحكم التبع إذا دلت على ذلك قرينة خارجية، ومنه قوله تعالى في سورة النمل: { وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ } وقوله: { وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَصُرُّوهُ شَيْئًا } . قال بعض العلماء: الضمير المنصوب في { تَصُرُّوهُ } عائد إلى الله؛ أي لا تصرُّوا الله شيئا بعدم امتثالكم أمره، ولا سعيكم في إعلاء كلمته، وهذا الوجه هو الذي يشهد له القرآن؛ كقوله جل وعلا: { إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَصُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا } . وتدل على هذا الآيات القرآنية الكثيرة أن الله غني عن خلقه الذين يدعونهم لطاعته؛ وإنما يدعونهم لنفعهم؛ فامثالهم نفعه لهم، وتمردهم ضرره عليهم؛ كما قال تعالى: { فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ عِنْدَ حَمِيدٍ } { إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَعِنِّي حَمِيدٌ } { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عِنْدَ عُنُقِكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } إلى غير ذلك من الآيات . وقال بعض العلماء: الضمير المنصوب عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي لا تصرُّوا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك؛ لأن الله تكفل له بنصره، كما يأتي في قوله: { إِلَّا تَصُرُّوهُ فَقَدْ تَصَرَّهُ اللَّهُ } الآية.